من كتب الشرق والغرب

الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة
للشيخ نجم الدين الغزى

إن كتب « الرجال » مما تفخر به الخزانة العربية. وليس هاهنا موضع سرد لأمهات تلك الكتب. والحق أن المئة العاشرة لم تكن تظفر من الكتب المطبوعة بسفر خاص بها جامع لرجالها، فليس « النور السافر عن أخبار القرن العاشر » لعبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسى، المطبوع فى بغداد سنة ١٩٣٤ بالكتاب المستوعب، وليس الجزء الثامن من « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » المطبوع فى مصر سنة ١٩٣٢ لابن العماد بالمرجع الأوفى. إن القرن العاشر لم تزل به حاجة إلى سفر مثل كتاب « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » للسخاوى، أو « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » للمحبى، وكلا الكتابين مطبوع فى مصر.

واليوم يخرج الأستاذ جبرائيل سليمان جبور — أحد أساتذة الدائرة العربية فى جامعة بيروت الأميركية — كتاب « الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة » لصاحبه نجم الدين الغزى. ولد سنة ٩٧٧، ومات سنة ١٠٦١، وقد اشتغل بالتدريس والتأليف.

والكتاب فى ثلاثة أجزاء. ظهر منه الجزء الأول فى مختتم السنة الماضية، وهو يدور على تراجم الأعيان المتوفين من مستهل سنة ٩٠١ إلى آخر سنة ٩٣٣، وسيتلوه الآخران إن شاء الله. وفى الجزء الثالث ستطبع الفهارس والمسارد على أصنافها.

وقد اعتمد ناشر الكتاب نسختين، إحداهما فى بيروت والأخرى فى دمشق. وهنالك نسخة ثالثة فى الجامع الأزهر بمصر لم يتمكن الأستاذ الناشر من الرجوع إليها. وهذا الجزء خارج خروجاً حسناً من جهة الدقة العلمية. ولسنا إلى النظر فى ذلك نقصد بهذه الكلمة، ولكن نحب أن نخبر القارئ بما فى سطور الكتاب فيطلع على مجرى الحياة فى ذلك العصر.

إن المترجين فى هذا الجزء يغلب عليهم أمران: الأول الاشتغال بدراسة الفقه، والثانى الانقطاع إلى العبادة. والفقهاء بين مدرسين ومؤلفين للحواشى والتعليقات، والأولياء بين متصوفة و « مجذوبين » و « مكاشفين ». ولهؤلاء غرائب كرامات وخوارق مواجدات. والمؤلف يرويها مطمئناً إليها داعماً لها. من ذلك ما كان يحدث من جانب محمد الضيروطى (ص ٨٤ و ٨٥) « كان يتطور ويختفى عن العيون وربما كان يتكلم مع جماعة فيختفى عنهم وربما كانوا وحدهم فوجدوه بينهم وأشار مرة إلى سفينة فيها الصوص فتسمرت ثم أشار إليها فانطلقت. وله من المؤلفات شرح المنهاج للنووى وكتاب القاموس فى الفقه وغير ذلك. » ومن ذلك أيضاً « سويدان المجذوب » (ص ٢١٣) « وكان من أولياء الله تعالى... وكان يتطور، فربما وجد فى صورة سبع وفيل وفى صورة فقير وأمير، وكانوا يرونه مرة بمكة ومرة بمصر. »

والكتاب مشحون بأخبار هؤلاء الصالحين المتعبدين المستغرقين . ومن فوائده أيضاً أنه يبذل لنا صورة من أسلوب الانشاء فى ذلك العصر ، وهو فى الجملة ركيك قد داخلته ألفاظ عامية وأعجمية . وفى الكتاب إلى جنب هذا موضوعات تمس الحياة الاجتماعية ، من ذلك تعاطى بعضهم « الحشيش والكيف » (ص ٣٠٦) ومنشأ شرب القهوة على يد أبى بكر الشاذلى العيدروسى وما صار إليه العلماء من اختلافات فى ذلك (ص ١١٤) ثم أحوال المتصوفة والمتجردين ، وهى مبثوثة فى مطاوى الكتاب . وإلى جانب ذلك كله فوائد تاريخية مثل قصة أحمد باشا الطاغية فى مصر (ص ١٥٦ — ١٥٩) .

وبعد ، فالرأى أن ميزة هذا الكتاب فى تصويره لجانب من الحياة العقلية والاجتماعية فى عصره ، لا فى سرده لرجال ليسوا فى مقام الأولين من الرجال .

بشر فارس

نزهة النفوس ومضحك العبوس (١)

عرضنا فى مقال سابق لهذا الديوان النفيس ، وتحدثنا عما فيه من شعر هزلى يذهب مذهب الدعابة والفكاهة . ولكنا لم نتحدث عن جانب آخر فى هذا الديوان ، وهو جانب هزلى أيضاً ، غير أن ابن سودون لم يكتبه شعراً ، بل كتبه نثراً ؛ فقد عقد فى ديوانه للنثر بابين : أما أولهما فباب الحكايات الملافيق ، وأما الثانى فباب التحف العجيبة والطرف الغريبة . والبابان جميعاً كتبا باللغة المصرية الدارجة ، وهما من هذه الناحية لهما أهمية خاصة ؛ فان من يقرؤهما لا يحس بوناً بعيداً بين لغتنا الدارجة الحديثة ولغة ابن سودون فى القرن التاسع الهجرى . ولسنا بصدد الحديث عن هذه الناحية ، فهى لا تهمنا الآن ، إنما يهمنا أن نستعرض الأدوار المضحكة التى مثلها صاحبنا فى ديوانه ، وهى أدوار تقوم على المجون والهزل ، مستمداً ذلك من المفارقات المنطقية ، وهى مفارقات تعتمد قبل كل شىء على فنون من التبالة وإظهار الغفلة ، فما نلبث حين نلم بالديوان أن نضحك ، ونغرب فى الضحك ؛ لأن ابن سودون يحسن كيف يتغابى ، وهو غباء يلتهى بنا إلى إهمال عقولنا ، فنضحك لا سخرية ولا استخفافاً ، ولا كما يقول بعض الأوربيين عقوبة له لأنه خالف منطقنا ، وأصبحنا نحس كأنه آلة جامدة ، بل لعلنا نضحك ؛ لأننا نريد أن نكافئه إذ استطاع أن يخرجنا قليلا من عالمنا . ومن منا يذهب إلى ممثل هزلى ليعاقبه بضحكه على شذوذه ؟ إننا نذهب للسمر ولنتمتع حقبة من الزمن بالانتقال قليلا من عالمنا إلى عالمه الذى تنعدم فيه — إلى حد ما — قيمنا المنطقية ؛ لتحل محلها قيم أخرى لا تستمد من منطقنا المألوف ، وإنما تستمد من منطق آخر ، إن صح هذا التعبير ، وهو منطق يقوم على التباين والشذوذ ودفع الأفكار من أعلى الشواهق ، وقد تتكست ، فأصبح أسفلها أعلاها فلا اتساق ولا انتظام ، وإنما تشويش واضطراب . واستمع إلى هذه النادرة التى يرويها ابن سودون فى باب الحكايات الملافيق :

(١) الكاتب المصرى مجلد ١٠ (يوليو ١٩٤٦) .

« قال ابن غيدشة الزلابياني : كنت — وأنا صغير — بليداً لا أصيب فى مقال ، ولا أفهم ما يقال ، فلما نزل بى المشيب زوجتنى أمى بامرأة كانت أبعد منى ذهنا ، إلا أنها أكبر منى سناً ، وما مضت مدة طويلة حتى ولدت ، والتمست منى طعاماً حاراً ، فتناولت الصحفة مكشوفة ، ورجعت إلى المنزل آخذ الكبة (غطاء الصحفة) ونسيت الصحفة ، فلما كنت فى السوق تذكرت ذلك ، فرجعت وأخذت الصحفة ونسيت المكبة ، وصرت كلما أخذت واحدة نسيت الأخرى ، ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس ، فقلت : لا أشترى لها فى هذه الليلة شيئاً ، ودعها تموت جوعاً ، ثم رجعت إليها ، وإذا هى تئن وإذا ولدها يستغيث جوعاً ، فتفكرت كيف أربيه وتحيرت فى ذلك ، ثم خطر ببالى أن الحمامة إذا أفرخت وماتت ذهب زوجها والتقط الحب ، ثم يأتى ويقذفه فى فم ابنه ، وتكون حياته بذلك ، فقلت : لا والله : لا أكون أعجز من الحمام ، ولا أدع ولدى يذوق كاس الحمام . ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز ، فجعلته فى فمى ، ونفخته فى فمه فرادى وأزواجا ، أفواجاً أفواجاً ، حتى امتلأ جوفه ، وصار فمه لا يسع شيئاً ، وصار يتناثر من أشداقه ، فسررت بذلك وقلت لعله قد استراح ، ثم نظرت إليه ، وإذا به هو قد مات ، فحسدته على ذلك ، وقلت يا بنى : أما إنه قد انحط سعد أمك ، وسعدك قد ارتفع ؛ لأنها ماتت جوعا وأنت مت من الشبع ، وتركتهما ميتين ، ومضيت آتيهما بالكفن والحنوط ، ولما رجعت لم أعرف طريق المنزل ، وها أنا فى طلبه إلى يومنا هذا . »

أرأيت كيف يستخرج ابن سودون منا الضحك بفكاهته ، وما يتقن وصفه من بلاهة صاحبه الزلابيانى وغفلته . وانظر إليه كيف جعله ينسى المكبة ويأخذ الصحفة ، ثم ما زال بعد ذلك كلما أخذ واحدة منهما نسى الأخرى فى تباله غريب ، وإنه لتباله يدفعنا إلى أن ننسى منطقنا ، فاذا بنا نضحك لاننا استرحنا قليلا من هذا المنطق الذى يتعبنا فى حياتنا ، وأخذنا نضرب مع ابن سودون فى عالمه الجديد . أتظن أننا بضحكنا نحتقره أو نزرى عليه ، أو نحس برغبة فى انتقام منه ، أو أننا نريد — كما يقول بعض النفسيين — أن نعاقبه فضحكنا تنفيس أو تعبير عن ذلك ؟ إن هذا فى الواقع يعد فى الخيال والتصور . ومالنا ولهذه المعانى السيئة ؟ لقد كنا نستطيع أن نؤمن بذلك لو أننا نحس بشىء من الموجدة على ابن سودون ، ولكنا لانحس بذلك ، بل نحس إزاءه بعطف ، بل بشىء من المودة ، فاننا نتمنى أن لو كان معنا الآن لنرى كيف يستغل حاضرنا فى دعاباته وفكاهاته . وانظر إلى ما يخلعه على الزلابياني من تباله ، إذ جعله يطعم وليده الجوز واللوز حتى قضى عليه قائلا إنه مات شبعاً فى حين ماتت أمه جوعاً . ثم يذهب به لإحضار كفنين لهما جميعاً ! ولكن صاحبه سرعان ما ينسى البيت ، وتخونه ذاكرته فيفقد كل دليل يدل عليه . وكل ذلك يضحكنا لا لأننا نريد أن نعاقب ابن سودون كما يزعم بعض النفسيين ، ولا لأننا نريد أن نكافئه كما نزعم نحن ، ولكن لأن مثل هذا الحديث يصيبنا بضرب من عدم الاتزان ، فنشعر بانبساط ومن ثم نشعر بسرور فنضحك . وليس كل عدم اتزان يفضى إلى ضحك ، فاننا نألم أيضاً حين تصادفنا حادثة لنفس السبب إذ نفقد تزاننا . وإذن ففقدان الاتزان يؤدى إما إلى ضحك وإما إلى بكاء . ومصدر هذا التناقض أننا حين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانقباض النفسى نألم ونحزن وقد نبكى ، وحين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانبساط النفسى نسر ونفرح وقد نضحك . ومعنى ذلك أن الضحك مسألة فردية تخضع

لشعور الفرد نفسه بضرب من الراحة ، لامسألة اجتماعية تخضع للمجتمع وأنه يريد أن ينزل عقاباً أو ثواباً بالأشخاص الفكهين . ونحن لا نريد أن نفسد فكاهة ابن سودون بمثل هذا الحديث الجاف ، فلنرجع إليه وإلى أدواره الهزلية ، ولنترك علماء النفس يفلسفون الضحك كما يريدون .

والحق أن ابن سودون كان جعبة فكاهة ، فأينما قلبت طرفك اندفعت تضحك ضحكا عاليا ، ونحن نسوق للقارئ إحدى نوادره فى باب التحف العجيبة والطرف الغريبة ، وهى كتاب كتبه على لسان أحد أبناء الصعيد إلى أبيه فى مصر وهو يمضى على هذا النحو :

« قال هوثقة بن بطاطة بن كجيج : أرسل فنين بن أبى المدارس إلى أهله كتاباً من الصعيد يقول فى عنوانه : يصل — إن شاء الله تعالى — إلى دربنا المحروس الذى ضبتو سنط ولقية ، ويسلم ليد البيت ، مطالعة الوالد ، وفى داخله السلام عليكم عدد ما فى نخيل البلد من أوراق ، وعدد أمواج البحر إن تكدر أو راق ، سلام كثير لا يسعه طبق ولا طبقين ولا أطباق ، أطول من مقود زرافة ، ولو كان طاق أو طاقين أو ثلاث أطواق ، من كل بدو سبب ... والذى أعرفكم به إن كنتو لسع بالحيا أنى أرسلت لكم صحبة القاصد على جوز وز فقس الصيف من ديك الوزة ، وأيضاً خروف أبلق وخروف بلا بلاق ، ويا سبحان الله ! تبقوا تتكلموا جزاف : أرسلتم تطلبوا جمل تنشروا عليه الغسيل ، وقلتوا لنا على طوله ، وما قلتوا على عرضه ! وارسلتم تطلبوا كشك ، وأنا إن أرسلته لكم من غير طبيخ فضيحة ، وإن طبخته ما يوصل لكم حتى يبرد . . . وطلبتوا تليلات والفلاحين ما يزرعوا إلا قرع طويل ، فيكون ذلك فى خاطركم . من حقه بلغنى أن امراتى حبلة ، فلا تخلوها تولد حتى أجى ، وإن ولدت قبل ذلك لا يكون إلا صبى . . . وجرت لى حكاية ، وذلك أنى غسلت قميصى ونشرته فى السطوح ، فقام بالأمر المقدور . ضربه الهوا ، فوقع من فوق لتحت ، وارتجفت بسلامتى رجفة . . . وعرفت أن ما هى بشارة خير ، وأنها تدل على موت أمى وأبويه والحمد لله كانوا فدايه ! وأنى صليت وصمت لله تعالى إللى ما كنت فى قميصى ، ولو كنت فيه كنت انكسرت ، فقلت : حوالينا ولا علينا ! ولكن من الرجفة وجعتنى عينى اللى تبقى ناحية المشد وقت أخرج من دارنا . والذى نعلم به الوالد زوج الوالدة أنى دخلت يوم البستان أنا والخولى فرأيت فيه نخل شى طويل ، وشى قصير ، وشى ما يشبه شى ، فقلت له دى إيه قال بلح ، قلت ودى قال نبق ، قلت ودى قال جميز ، قلت ودى قال مشمش ، قلت ودى قال توت ، ورأيت يا أبويه نخلة فيها كل ورقة قدر الصحفة ، فقلت له ودى إيه فقال لى موز ، فعجبنى قوى ، وقلت له الموز يطلع فى البستان ، فقال لى أيوه ، فقلت له والجبن المقلى يطلع فين ، قال : يطلع فى طاجن الجبان . وانت تعرف إن بيتنا على دكان الجبان ، وأنا كل يوم أجى وأطل من الطاقة وعمرى ما رأيت فى الدكان نخيل جبن مقلى ، وكابرت الخولى وراهنتو من دجاجتى الرقادة لنعجتو الحبلة ، فالوالد يبصر لنا إن كان الخولى غلبنى . والذى أعرفكم به كمان أنى لما طلعت البلد ولقيت الصابون غالى بعت فرسى البيضة ، واشتريت لى حمارة سودة حتى لا تتوسخ . وبس كلام ، فانى لو كتبت الذى فى خاطرى كله كان الكتاب يجى من هون لفين . بعد السلام على أهل الحارة ، كل واحد وحده ، كتير كتير ، بتاريخ صبيحة يوم الجمعة الحرام بعد صلاة التراويح من يوم عاشورا السابع والثلاثين من جمادى الأوسط سنة تاريخه ، وبالأمارة مطرت المطرة ، وأهل البلد كلهم يعرفوا ، إن شاء الله . »

وواضح أن ابن سودون كتب هـذا الخطاب باللغة الدارجة لعصره ، وهى لا تختلف كثيراً عن لغتنا الدارجة الآن . وقد جاء فيه بلازمة معروفة لأهل الصعيد إذ أبدل الهاء فى لسه « عينا » فقال لسع ، وأيضا فنحن نجد فيه بعض لوازم أهل الشام ككلمة « من هون » . وكأنما كان المصريون فى عصر ابن سودون مثلنا الآن يضحكون من بعض اللوازم فى لهجة إخواننا أهل الشام ، ومن أجل ذلك يستظهر ابن سودون هـذه اللوازم فى بعض هزله . ولكن ليس هـذا هو ما يضحكنا فى ديوان ابن سودون ولا فى هذا الكتاب الذى أرسله فنين إلى أبيه ، إنما يضحكنا ما يعمد إليه من تباله ، وها هو ذا يحاول بكل ما يستطيع أن يجعل صاحبه مثلا أعلى للبله والمغفلين ؛ فقد بدأ كتابه بهذا العنوان : « يصل — إن شاء الله — إلى در بنا المحروس الذى ضبتو سنط ولقية » ؛ وهذا هو كل ما استطاع فنين أن يجعله عنواناً لكتابه ، فقد عرف بالدرب الذى أرسله إليه ، وهو درب ضبة بابه سنط ولقية ، ونستمر فى قراءة الخطاب ، فاذا هو يستشكل على أبيه ، إذ أرسل يطلب منه حبل غسيل ، وقد اكتفى بأن يذكر له طوله ، ولم يذكر له عرضه ! وكذلك أرسل فى طلب كشك ، ولم يقل له كيف يرسله ، وهل يرسله مطبوخا أو غير مطبوخ ، وأيضاً فانه سأله بعض قلل ، وكأنه لا يعرف أن الفلاحين لا يزرعون قللا ، وإنما يزرعون قرعاً طويلا . وهذه كلها استشكالات تفسر تفسيراً واضحاً عقل فنين وما يسمه من بله وغفلة ، وهو يمضى على هـذا المنوال فيحمد الله أن وقع ثوبه من فوق بعض السطوح ولم يكن فيه ، وإنه ليسترسل فى غفلته فاذا هو يتخذ من ذلك دليلا على موت أبيه وأمه ! ويستمر فيذكر أنه ارتجف بسبب حادثة ثوبه رجفة رمدت بسببها عينه ، ويريد أن يقول اليمنى أو اليسرى فلا يسعفه بلهه ، فيقول إنها العين التى تكون بازاء ناحية المشد حين خروجه من بيته ، ولا نصل إلى هـذا الموضع من الكتاب حتى تستهوينا هـذه الغفلة فى فنين فنتابعه وإذا هو يقص أنه دخل بستانا ورأى فيه أشجاراً من أنواع شتى ، وقد ذهل حين رأى هذه الأنواع وأداه ذهوله أن يسأل الخولى أين يطلع الجبن المقلى ، كأنه تصور الجبن المقلى فاكهة مثل المشمش والموز . وسرعان ماعرف الخولى فيه هذا الذهول ، بل قل هذه الغفلة وذلك البله فتندر عليه قائلا : إن الجبن المقلى يطلع فى دكان الجبان ، وذهب فنين ينظر فى طاقة تطل على دكان الجبان ليرى تخيل الجبن الذى حدثه به الخولى ، فلم يجد شيئاً فذهب يراهنه من دجاجته لنعجته . وإن ابن سودون ليستمر فاذا صاحبه يذهب إلى السوق فيجد الصابون مرتفعاً سعره ، حينئذ تسول له بلاهته أن يبيع فرسه ويشترى مكانها أتانا سوداء حتى لا تتسخ . وأخيراً يؤرخ خطابه هذا التاريخ المشوش ؛ إذ يؤرخه بيوم عاشوراء السابع والثلاثين من جمادى الاوسط . فانظر إلى هذا الخلط فى التاريخ ، وكل ذلك أراد به ابن سودون أن يصور تصويراً دقيقاً حال بعض أهل الريف فى عصره ، وما هم عليه من غفلة ، فاختار فنيناً هـذا ليبلغ من هزله كل ما يريد . وكما يتندر ابن سودون على أصحاب الريف من أهل الصعيد فى عهده نجده كذلك يتندر على الفقهاء وغيرهم من علماء عصره الذين كانوا يعنون بالمناقشات اللفظية وما يتصل بها من كثرة اعتراضاتهم وبيانهم لما تفترق فيه الأشياء وتجتمع ، وإنهم ليبالغون فى ذلك حتى ليصلون بين أشياء متباعدة لاتخطر على بال أحد . وقد ذهب ابن سودون يتفكه ويتندر على هذا الصنيع فى كثير من جوانب طرفه وتحفه ، فتارة يأتى بمثل نحو قول العامة : أبو قردان زرع فدان ملوخيا

وباذنجان ، ويشرحه شرحاً مفصلا على طريقة علماء اللغة ، فهو يتكلم عن ألفاظه ويخرجها من الوجهة الاشتقاقيـة تخريجاً كله هزل ودعابة ، وتارة اخرى تراه يقف ليوجه مسألة دقيقة ، ونحن نذكر مثالا لذلك هو حديثه عن الفرق بين المركب والفرس لينجلى لك هذا الجانب المضحك فى ديوانه :

« إن من عرف العلم بتحقيقه ، وانعجنت فكرته بدقيقه ، علم أن بين المركب والفرس فرائق من كم وسن ، الفرق الأول أن المركب أثقل من الفرس بدليل أن الفرس إذا حملوها على فرس أخرى تقدر تحملها ولو حملوا المركب على فرس ما قدرت الفرس تحملها ... الفرق الثانى أن المركب أكبر بدليل أن الفرس إذا وضعت رأسها عند ذأس المركب لا يصل ذنبها إلى ذنب المركب ، وأيضا فان المركب ينام عليها الواحد بالطول والعرض وإيش ما خطر له بخلاف الفرس . وأيضا فان المركب ينام على ظهرها واحد وعشرة وأكثر فظهر الفرس ما هى كده . وأيضا فلفظ فرس ف ر س ولفظ مركب م ر ك ب ، فمركب أزيد بحرف والزائد أكبر من الناقص . الفرق الثالث أن الفرس لها سمع وبصر ، تسمع من صاحبها إيش ما قاله لها ، وتبصر كيف تحط رجلها ، والمركب ما هى كده . الفرق الرابع أن الفرس لها أربع قوائم تندار بهم إن خطر لها من هون لهون ، والمركب ما هى كده . ولا يرد على هذا الصندوق والسرير بأن لكل واحد أربع قوايم ، ولا يندار ؛ لأن الكلام فيما يركب ، والسرير وإن كان يركب ، إلا أنه لا يركب للسفر ، والكلام فيما يركب للسفر . الفرق الخامس أن بطن المركب معوقة فى الميه وبطن الفرس مسيبة ، إلى غير ذلك من الأفراق . »

وهذه الفكاهة لا تجد صداها فى نفس القارئ إلا إذا كان قد اطلع على حذلقة أصحاب الشروح والحواشى وعرف اعتراضاتهم وكثرة ما يورده المحشى على الشارح ! وما نظن أحدا بلغ من التندر على علماء العصور الوسطى وانشغالهم بالمناقشات اللفظية ما بلغه ابن سودون ، فقد ذهب يحاكيهم فى بعض حكاياته الفكاهية ينقل طرقهم ومصطلحاتهم ، وقد هيأ له ذلك أنه كان إماما ببعض المساجد وكان على حظ واسع من علوم القوم وفنونهم . وانظر إليه وقد استفتاه بعضهم عن الدجاجة هل هى من البيضة أو البيضة من الدجاجة ، فأفتاه على هذا النحو الذى نرويه برمته عنه إذ قال :

« لا نقل عندى فى هذه المسألة ، والأمران محتملان ، والأظهر أن الدجاجة كانت أولا ثم باضت وحصل التناسل ، ومما يؤيده الحدوتة المشهورة ، وهى أحدتك حدوتة ، بالزيت ملتوتة ، كان ما كان ، فى قديم الزمان ، أولاد حمدان ، يطلبوا نانا ، والنانا فى التنور ، والتنور يريدلو حطب ، والحطب فى الجبل ، والجبل يريدلو فاس ، والفاس عند الحداد ، والحداد يريدلو بيضة ، والبيضة فى الدجاجة ، والدجاجة تريدلها لقط ، واللقط فى الحظيرة ، والحظيرة تريد لهـا مفتاح ، والمفتاح عند رباح ، مايجى من الساعة لشق الصباح . فقال والبيضة فى الدجاجة ، ولم يقل الدجاجة فى البيضة ، ولا يختص هذا بالدجاجة بل الوزة كذلك أيضا . وإنما كتبت الحكاية هنا لعزتها . »

وواضح أنه يستخدم مصطلحات الفقهاء فى فتاواهم من مثل لا نقل عندى فى هذه المسالة ، والأمران محتملان ، والأظهر ، ولا يختص . وقد ذكر الاصطلاح المشهور فى لغتنا الدارجة عن من يحكون الحكايات إذ قال : أحدتك حدوتة بالزيت ملتوتة ، وقال أيضا : كان ما كان فى قديم الزمان .

أما الحكاية نفسها فلها صور كثيرة تشبهها فى عاميتنا الحديثة . وعلى هذا النمط كان ابن سودون يداعب أصحاب العلوم والفنون فى عصره كما كان يداعب غيرهم من أهل مجتمعه : الريفيين وغير الريفيين . ولم ينس أن يلهج بحديث لأحدب بغدادى حكى فيه لغته ولهجته فى صورة هزلية بديعة ، وكذلك تمثل بشعر على طريقة بعض الأعاجم الذين كانوا يزورون مصر فى العصور الوسطى وقد حشد فى شعره بعض ألفاظهم كى يتقن دعابته . والحق أن ابن سودون كان فكها من الطراز الأول ، وقد لا نغلو إذا قلنا إنه أهم فكاهى ظهر بمصر قبل عصرها الحديث . وقد كان يتخذ منهجا واضحا فى فكاهته وهو منهج كان يعتمد على المفارقات المنطقية من جهة ، كما كان يعتمد على كل ما يمكن من غفلة وبلاهة من جهة أخرى ، ولم يكن يحتال لذلك بأشياء خيالية ، بل كان يعمد إلى واقع حياته ومجتمعه ، فيتخذ منهما ما يريد من هزله . والطريف أنه كان يجد فيهما دائما مادة غزيرة لفكاهته ودعابته ؛ إذ كان يعرف كيف ينقل أقرب الأنباء والموضوعات منه إلى أدوار هزلية مضحكة فاذا هى وقد تبدلت وجوهها وأصبح كل ما يتصل بها ينشر الضحك والفكاهة . وكان يسوق ذلك فى طريقة خاصة ؛ إذ كان ما يزال يخرج من عبث إلى عبث ، ومن مألوف إلى مألوف ، ومن غريب إلى غريب ، ومن بله وغفلة إلى بله وغفلة ، حتى ليضطرب توازننا ، ونحس كأننا قد خرجنا من عالمنا إلى عالم اخر هو عالم ابن سودون ، وهو عالم تضطرب فيه الأشياء والأفكار اضطرابا مضحكا على نحو ما نجد عند ممثلى عصرنا الهزليين فى أدوارهم الفكهة وصورهم المضحكة .

شوقى ضيف